﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾ [غافر: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

في النّار لا إعذارٌ ولا اعتذارٌ للكفّار

هذه الآية هي ردُّ خزنة جهنَّمَ على أولئك الكفّار مِن الضُّعفاءِ والمستكبرينَ جميعًا، لمّا ضاقتْ حيلُهم، وعُدِمت عِللُهم، فتوسَّلوا إلى الملائكة خزنةِ جهنَّم أن يدعوا لهم ربَّهم؛ ليخفِّف عنهم بعض العذاب، ولو ليوم واحد؛ فأجابتهم الخزنةُ بعدم أحقيَّتهم بهذا التَّخفيف، ولا عذرَ لهم أصلًا في طلبه، معرِّفين لهم بسياقه بالسَّبب، الجاعل لهم في محلِّ الاطِّراح والسُّفول عن التَّأهُّل لأن يُسمع لهم كلام[1]، قائلةً لهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾: البيّنات جمع بيِّنة، وأصل (بين) يدلُّ على بُعْد الشَّيءِ وانكشافه، ومنه: البَيْنُ بمعنى الفِراق، يُقالُ: بانَ يَبينُ بَيْنًا وبَينونَةً، وبانَ الشَّيءُ، وأبان إذا اتَّضح، وانكشف[2]، يقال: بان كذا، أي: انفصل وظهر ما كان مستترًا منه، ولمّا عُدَّ فيه معنى الانفصال والظُّهور؛ استُعمل في كلِّ واحد منفردًا، فقيل للبئر البعيدة القعر: بَيون؛ لبُعد ما بين الشَّفير والقعر لانفصال حبلها من يد صاحبها، وبان الصُّبح: ظهر[3]، والمراد بالبيِّنات في الآية: المعجزات[4].

2) ﴿بَلَىٰۚ﴾: بلَى حرفٌ أصليُّ الألف، وقيل: الأصلُ (بل) والألفُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الراغب، المفردات: (بين).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 215.

زائدَةٌ، وقيل: هي للتَّأنيثِ بدليلِ إمالتِها[1]، وهوَ من حُروف التَّصْديق مثل (نعم)، إلّا أنَّ (نعم) يَقع تَصديقًا للإيجاب والنَّفْي في الخبر والاستفهام جميعًا، و(بلى) يختصُّ بالمنفي خبرًا أو استفهامًا على معنى أنَّها إنَّما تقع تصديقًا للمنفي على سبيل الإيجاب، ولا تقع تَصديقًا للمثبت أصلًا؛ ولِهذا قيل: قائِل (بلَى) في جواب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] من الأرواح مُؤمنٌ؛ لأنَّهُ في قوَّة (بلى أنت ربُّنا)، وقائِل: (نعم) مِنْها كافِر؛ لأنَّهُ في قوَّة (نعم لست بربِّنا)[2].

3) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: أصل (ضلَّ) يدلُّ على ضَياع الشَّيءِ وذَهابه في غَيرِ حَقِّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ - لُغَتانِ - وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصدِ ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالَةُ بِمَعنًى، ورَجُلٌ ضِلّيلٌ ومُضَلَّلٌ؛ إذا كانَ صاحِبَ ضَلالٍ وباطِلٍ[3]، والضَّلالُ: العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّه الهداية، ويقال: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[4]، ومعنى قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: ضياع بحيث لا يُجاب[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال خزنةُ جهنَّم للَّذين في النّار من الكفّار حين قالوا لهم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: 49]، أي: يدفع عنّا يومًا من أيّام العذاب، أو ألم يوم وشدَّته، قالوا ذلك لما أيسوا مِنَ التَّخفيف عند المحاجَّة؛ قال الخزنة لهم ردًّا لطلبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: المعجزات المتكاثرة الدّالَّة على صِدقهم، المنذرة بهذه الشِّدَّة؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، أي: جاؤوا بها، وأخبروا

فات وقتُ الدُّعاء والاعتذار، وحان وقتُ الجزاء

(1) السيوطي، الإتقان: 2/ 219.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 235.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(4) الراغب، المفردات: (ضل).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 60.

مع البيِّنات ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾، أي: إن كان ينفعكم، وهيهات: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: في ضياع لا يجاب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتِها:

ردُّ الملائكةِ على أهل النّار صورةٌ من صوَرِ العذاب والتَّهكُّم

الفصل في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ للاستئناف البيانيِّ، على العادة في المقاولاتِ، وهو قول خزنة جهنَّم، فضمير فاعل ﴿قَالُوٓا۟﴾ راجعٌ لخزنة جهنَّم، قالوه جوابًا عن طلب أهل النّار منهم الشَّفاعة والدُّعاء أن يخفِّف ربُّهم عنهم يومًا من العذاب، كما جاء في الآية السابقة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: 49]، فكأنَّه قيل: وبماذا أجابهم الخزنة حين طلبوا منهم ذلك؟ فكان الجواب: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فبين الجملتين شبه كمال الاتِّصال[2].

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعه وغرضه:

الاستفهامُ تقريريٌّ إلزاميٌّ، لا يملكون معه إلّا الإقرارَ

الاستفهام في قول الخزنة: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تقريريٌّ، غرضُهُ إلزامهم الحجَّة وتوبيخهم وتنديمهم بتفويت أوقات الدُّعاء المجاب[3]، وإلجاؤُهم إلى الاعتراف بمجيءِ الرُّسل إليهم مدعومين بالمعجزات الدّالَّة على صِدقهم، وأنَّهم بلَّغوهم رسالةَ ربِّهم إليهم، لكنَّهم هم من كفروا بهم، وجحدوا رسالاتهم، ويضاف إلى هذا التَّقرير الملزم لهم بالحجَّة من المعاني الثانية التَّبكيت والتَّيئيس من رحمة الله، ثمَّ الاستدراج[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 313.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 468.

دلالة الواو في ﴿أَوَلَمْ﴾:

تقريعُ أهلِ النّار وتبكيتهم بعد تقريرهم بوفاء المرسلين بحقِّ الدَّعوة والبلاغ

قوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ الواو المتوسِّطة بين همزة الاستفهام و(لم) الجازمة عطفت الجملة بعدها على محذوف قبلها يُفهم تقديرُهُ من السّياق، كأن يقال: التَّقدير: "ألم تُنبَّهوا على هَذا، ولم تكُ تأتيكُم رسلُكم في الدُّنيا على الاستمرارِ بالحججِ الواضحةِ الدّالَّةِ على سوءِ مغبَّة ما كنتُم عليهِ من الكُفرِ والمَعاصي"[1]، أمّا ابن عاشور؛ فإنَّه يقول فيها:

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ لم يعرِّج المفسرون على موقعها، وهي واو العطف عطف بها (خزنة جهنم) كلامهم على كلام الَّذين في النّار، من قبيل طريقة عطف المتكلِّم كلامًا على كلام صدر من المخاطَب؛ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أن يكون من بقيَّة كلامه وألّا يغفله، وهو ما يلقَّب بـ (عطف التَّلقين)، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ﴾ [البقرة: 124]، فإنَّ أهل النّار إذا تذكَّروا ذلك؛ علموا وجاهة تنصُّل خزنةِ جهنَّم من الشَّفاعة لهم[2].

نكتةُ التَّخفيف في قوله: ﴿تَكُ﴾:

إيلامُ أهل النّار وتقريعهم بإيجاز الكلام معهم، فلا يحدث لهم أنسٌ به

حذف النّون من جهة النَّحو في قوله: ﴿تَكُ﴾ للتَّخفيف، والأصل: (تكن) وقد جاءت على الأصل في مواضع كثيرة في الكتاب العزيز كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: 23]، ولعلَّها إنَّما يؤثِّر فيها الحذف عندما يقتضي المقام الإيجاز[3]، وهو الأنسب في حوار أهل النّار مع الخزنة، أي: أن يكون ردُّ الخزنة عليهم مقتضبًا، فلا يأنسوا بحوارهم معهم، فيكون ذلك الإيجاز جزءًا من إيلامِهم وتقريعِهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾:

حججُ اللهِ تعالى على قائمةٍ لا تنقطع

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾؛ للدَّلالة على أن مجيء الرُّسل إلى الأمم أمرٌ متقرَّرٌ محقَّقٌ؛ لما يدلُّ عليه فعل الكون من الوجود بمعنى التَّحقُّق، ودخول (لم) النافية على فعل الإتيان، دلَّ وقوعه وتحقُّقه في الزَّمن الماضي؛ لأنَّ (لم) تكون للنَّفي في الماضي[1].

وأمّا إيثار كون فعل الإتيان مضارعًا؛ فللدَّلالة على الاستمرار لبعثة الرُّسل على سبيل التَّجدُّد[2]، كأنَّه قيل: (أولم تكُ تأتيكم رسلكم في الدُّنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدّالَّة على سوء مغبَّة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي)[3].

وأوثِرَ في الجملة كونها فعليَّة، فقيل: ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾، ولم يقل: (رسلكم تأتيكم) مع تقديم الفعل ﴿تَأْتِيكُمْ﴾ على الفاعل ﴿رُسُلُكُم﴾؛ لأهمّيَّة الإتيان، فإنَّه محلُّ الإلزام[4].

نكتةُ تقديم المفعول على الفاعل في ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾:

في توجيه الخطاب للكافرين مزيد إنكار وتوبيخ

قدَّم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾؛ لأنَّ المفعول هنا ضمير متَّصل بالفعل، والفاعل اسمٌ ظاهر، وهي إحدى حالات وجوب تقديم المفعول به على الفاعل، ومن جهة البلاغة فإنَّ المفعول هنا، وهو ضمير المخاطَبين العائد على أهل النّار، هو محور الحديث ومحلُّ الزَّجر والتَّوبيخ، ولذا قدَّمه اعتبارًا بكونه مظهرًا من مظاهر التَّعجيل بالإنكار والتَّأنيب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 166.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.

دلالةُ إضافة ﴿تَأۡتِيكُمۡ﴾ و﴿رُسُلُكُم﴾ إلى ضمير المخاطَبين:

جحودُ الكافرين وإعراضهم مع اجتماع كلِّ الدَّواعي إلى الإسلام والإذعان

في قوله: ﴿تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ نُصَّ على ذِكر المفعول - ضمير المخاطَبين - ولم يُحذف، ثم أضيف الفاعل (إليه)؛ ترشيحًا للتقرير والإلزام، وما يتولَّد عنهما من التَّبكيت والتَّقنيط[1]، ففي ذِكر المفعول مع فعله في ﴿تَأۡتِيكُمۡ﴾ تنصيصٌ على بلوغ الحجج لهؤلاء المخاطَبين مِن أهل النّار، فقد بلغتهم الدَّعوة، وأتتهم الآيات البيِّنات، فلا مطمع لهم في إنكار ذلك، وفي إضافة الرُّسل كذلك إلى ضمير المخاطَبين مزيد إنكار وتقريع، كأنَّه قيل: ألم تأتِكم الرُّسل الذين هم منكم، فأنتم جديرون بالإصغاء إليهم والإقبال عليهم؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أمثل، والإنسان من مثله أقبل[2].

دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

أقام اللهُ تعالى الحجج الكاملةَ بإرسال الرُّسل وتأييدهم بالبيِّنات

قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الباء فيه للمصاحبة، أي: كانت الرُّسل تأتيكم بالرِّسالة مصحوبةً بدلائل الصِّدق، وهي المعجزات التي أيَّدهم بها ربُّهم، والجار والمجرور إمّا أنَّه متعلِّق بقوله: ﴿تَأۡتِيكُمۡ﴾ أو متعلِّق بمحذوف حال من ﴿رُسُلُكُم﴾[3].

دلالة (أل) في (البيّنات)، وسرُّ حذف موصوفها:

الرِّسالات الإلهيَّة حجج في ذاتها كافية للموفَّقين

المراد بقوله: (البيّنات) الحجج الواضحة والدَّعوات الصَّريحة إلى اتِّباع الهدى التي لا شيء أوضح منها[4]؛ لتقوم بها الحجَّة على الخلق، وعليه فـ (أل) للعهد، والمعهود هي المعجزات أو الآيات، أي: إنَّ هنالك موصوفًا محذوفًا، تقديره: الآيات أو المعجزات، وسرُّ حذف الموصوف والاكتفاء بالصِّفة مزيد الاعتناء بالصِّفة، "وأنَّها

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.
(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 24/ 191.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.

بيِّنة ظاهرة لا ينكرها منصف"[1]، وقد تكون (أل) للاستغراق والشمول، بالنَّظر إلى مجموع المعجزات مع الرِّسالات نفسها، فإنَّ الرِّسالات الإلهيَّة من حيث هي إنَّما تحمل في ذاتها دلائل صِدقها حتّى لو لم تكن هنالك معجزات خارجيَّة، والشّاهد على ذلك القرآن الكريم، فهو الرِّسالة والمعجزة في آنٍ، فإذا أضفنا إلى ذلك كون الرُّسل من خيار النّاس وأصفيائهم كان اختيارهم في ذاته شاهدًا على صِدقهم، فقد هيَّأهم الله تعالى لتلقّي رسالته، وعصمهم من كلِّ ما يعيب البشر الكامل.

نكتة فصل قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ومرجع الضمير:

لا عـذرَ لأهـل النار إلّا الاعترافُ والإقرار

فصل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾؛ لأنَّه جواب عن الاستفهام الصّادر من الخزنة إلى الكفار من أهل النّار في قوله تعالى حكاية لقولهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾، فالفصل بينهما لشبه كمال الاتِّصال، وضمير الفاعل في ﴿قَالُواْ﴾ يعود على أهل النّار الذين يحاورون خزنتها.

نكتة الإجابة بـ﴿بَلَىٰ﴾:

أدَّى المرسلون الأمانة، وبلَّغوا الرِّسالة

لفظة ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لكلام فيه معنى النَّفي، فيقتضي إبطال النَّفي وتقرير المنفي، ولذلك كان الجواب بها بعد النَّفي أصرح من الجواب بحرف (نعم)[2].

و﴿بَلَىٰ﴾ هنا لإبطال نفي الجملة قبلها: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾؛ لأنَّ النَّفي، وإن بطل بالاستفهام الإنكاري، لكن في الجواب يُعامل معاملة النَّفي المحض، كقوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172][3].

(1) أبو موسى، آل حم فصلت وغافر دراسة في البيان القرآني، ص: 181.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 168.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 78.

نكتة فصل قوله: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾:

كمالُ الطُّغيان معرفة الحقِّ والصَّدُّ عنه، ومحاربة أهله

فصلت جملة: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾ عن سابقتها للاستئناف البياني، كما هو الشَّأن في المقاولات، فكأنَّه قيل: فماذا قالت لهم الخزنة بعد قولهم: ﴿بَلَىٰۚ﴾ فكان الجواب: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾، فضمير الفاعل في ﴿قَالُواْ﴾ يعود على خزنة النار الذين يحاورون أهلها، وعليه فبين الجملتين المفصولتين شبه كمال الاتِّصال.

معنى الفاء في ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾:

دعاء المولى الجليل ممّا يتحقَّق به المستحيل

الفاء في قوله: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ هي فاء الفصيحةِ، فقد أفصحت عن شرط مقدَّر، أي: إذا كان الأمر كذلك؛ ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ ربَّكم أنتم بأنفسِكم، فإنَّ الدُّعاء لمن يفعل فِعلكم ذلك مستحيل صدوره عنّا[1]، وقد تكون الفاء لتفريع كلام الملائكة على اعتراف أهل النّار بمجيء الرُّسل إليهم بالبيِّنات، ومعنى تفريعه عليه هو أنَّه مفرَّع عليه باعتبار معناه الكنائي الذي هو التَّنصُّل من أن يدعوا لهم، أي: كما تولَّيتم الإعراض عن الرُّسل استبدادًا بآرائكم، فتولَّوا اليوم أمرَ أنفسكم، فادعوا أنتم، فإنَّ "من تولَّى قرَّها؛ يتولَّى حرَّها"[2].

دلالة الأمر في ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾:

التَّهكُّم والإقناط عذابٌ فوق العذاب

الأمر في قوله: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ ليس أمْرَ طلب للدُّعاء على سبيل الحقيقة؛ إذ إنَّهم ليسوا للدُّعاء بأهل، وقد كفروا بمن يوجِّه إليه الدُّعاء، وهو الله تعالى، فالغرض المقصودُ إذًا بهذا الطَّلب ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ الاستهزاء والتَّهكُّم بهم وإقناطهم من الإجابة ومضاعفة التَّبكيت والتَّحسير لهم على ما فرط منهم، وأيضًا لإظهار حقيقتهم حسبما صرَّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأنفسهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، أي: إلّا في ضياع وبطلان لا يجاب؛ لأنَّهم دعوا في غير وقته[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 166.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 217، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.

نكتةُ حذف متعلّق ﴿فَٱدۡعُواْ﴾:

يتبرّأ كلُّ وليٍّ من وليِّه من هول العذاب يوم القيامة

حذف متعلِّق ﴿فَٱدۡعُواْ﴾؛ اختصارًا للعلم به لتقدُّم ذكره في قولهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: 49]، والتقدير: ادعوا أنتم ربَّكم، وقد يكون الغرض من هذا الحذف الدَّلالة على العموم، أي: نفي منفعة دعاء الكافرين أيًّا من كانوا سيدعونه، سواء كان الله تعالى، أو أهل الله من رسل البشر أو الملائكة أو غيرهم، فإنَّه لا يسمع منكم[1].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

لا ينفع في ذلك اليوم إلّا الإيمان والعمل والصّالح

الواو للحال، والجملة بعدها حالية، أي: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾، والحال أنَّه مهما دعوتم؛ فدعاؤكم في هلاك وضياع، فمثلكم لا يُسمَع دعاؤه، ولو سُمِع؛ فلن يجابَ، بل يُرَدَّ على صاحبه، وهذه قرينة قويَّة على كون الأمر في قولهم: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ هو أمر تهكُّم واستخفاف بهم.

بلاغةُ الاحتراس أو التَّذييل في الآية:

ضلَّ سعي الكافرين في الدُّنيا، فضلَّ مسعاهم في الآخرة

في قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ احتراس لدفع توهُّم أنَّ المُراد بـ (ادعوا) طلب الدُّعاء؛ لأنَّه لمّا كان أمرهم بالدُّعاء موجبًا لأن يظنّوا نفعه؛ أتبعوه بما أيأسهم؛ لأنَّ ذلك أنكأ وأوجع وأشدُّ عليهم وأفظع[2]، وعليه فالقول إنَّما هو لخزنة جهنَّم، أي: هم القائلون: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ على سبيل الاحتراس، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تذييلًا لما فُهِم من الكَلام السّابق، وهو أنَّ دعاءكم لا ينفع أصلًا لتعطيلكم أسباب الإجابة، فيكون ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ تقريرًا لهذا المفهوم[3]، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا القول من كلام خزنة جهنَّم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 86.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 78.

تذييلًا لكلامهم يبيِّن أنَّ قولهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ مستعملٌ في التَّنبيه على الخطأ، أي: دعاؤكم لم ينفعكم؛ لأنَّ دعاء الكافرين في ضلال، والواو اعتراضيَّة، ويجوز أن يكون من كلام الله تعالى؛ تذييلًا واعتراضًا وتقريرًا لما فُهِم، لا احتراسًا[1].

بلاغةُ القصر ونوعه وغرضه:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أسلوب قصر مقتفًى فيه أقوى طرق القصر، وهو النَّفي ثمَّ الاستثناء، والقصر فيه هو من قصر الموصوف على الصِّفة؛ ليفيد أنَّ دعاء الكافرين وحده هو في ضلال؛ ليُستثنى من هذا الحكم دعاء المؤمنين، فهو محلُّ القبول، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]، وغرض هذا القصر عدا تأكيد الحكم زيادة تقنيطهم وتحسيرهم على ما فرط منهم في الدُّنيا من عدم الإيمان الذي آل بهم في القيامة إلى الخيبة والخسران، فلا يقبل منهم بسبب ذلك دعاء، ولا يتحقَّق لهم رجاء.

تأكيدُ الحكم مع زيادة تقنيطهم وتحسيرهم على ما فاتهم من الإيمان بالله

نوعُ الإضافة في ﴿دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الإضافة في قوله: ﴿دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هي من إضافة المصدر إلى فاعله، والغرض منها هو التَّخصيص، فإضافة المصدر إلى فاعله أفادت تعيين الفاعل حتى لا يدخل في الوصف كلُّ دعاء، فدعاء المؤمنين ليس في ضلال.

ضلال دعاء الكافرين عامٌّ في الدُّنيا والآخرة

والمعنى: "ما دعاء الكافرين لأنفسهم إلّا في ضلال، ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: وما دعاء غيرهم لهم بتخفيف العذاب عنهم إلّا في ضلال"[2]، كما أنَّ هذه الإضافة أيضًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 78.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 334.

تفيد عموم كون دعاء الكافرين غير مستجاب في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ لأنَّ المصدر المضاف من صيغ العموم، فيقتضي أنَّ دعاء الكافرين غير متقبَّل في الآخرة وفي الدنيا؛ لأنَّ عموم الذوات يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة[1]، وقيل: إنَّ الآية في دعاء الكفّار يوم القيامة، وأنَّ الكافر قد يقع في الدُّنيا ما يدعو به، ويطلبه من الله تعالى إثر دعائه[2]، وهنالك نزاع حول ما إن وقع ذلك؛ فهل يسمَّى إجابة للدُّعاء أو شيئًا آخر[3]؟.

معنى(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ونكتة إظهاره:

حـالَ كـفـرهـم بـيـنـهـم وبـيـن قبول دعائهم

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للجنس لا للعهد، وممّا يؤيِّد كونها للجنس إظهار لفظ الكافرين والعدول عن الإضمار؛ إذ لو كان المراد خصوص المتحاجّين في النار ممَّن عنوا في سابق الآيات؛ لكانَ التعبير بضمير المخاطَب أولى، فيقال: (وما دعاؤكم إلّا في ضلال)، كما أنَّ في ذلك الإظهار تسجيلًا عليهم بالكفر، وبيانًا لكون ما حلَّ بِهم من عدم قَبولِ دعائهم، إنَّما هو بسبب كفرِهم لا غير.

نوع الاستثناء:

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ هو استثناء مفرَّغٌ من أعمِّ العلل والأحوال، أي: وما دعاء الكافرين في حال من الأحوال، ولا لعلَّة من العلل، إلّا في ضلال.

معنى ﴿فِي﴾:

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ مفيدةٌ للظرفيَّة المجازيَّة؛ للدَّلالة على التَّمكُّن في الوصف، أي: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلّا ضائع ضياعًا شديدًا، كأنَّ الضياع قد أحاط بدعائهم، فلا ينتفعون به أدنى انتفاع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165.

نكتةُ تنكير ﴿ضَلَٰلٍ﴾ وإيثار مصدريَّته:

ضلالُ دعائِهم في الآخرة، نتيجة ضلالهم في الدُّنيا

نكتة تنكير كلمة ﴿ضَلَٰلٍ﴾ إفادة التَّهويل، فهو ضلال كبيرٌ مبينٌ، وكأنَّ دعاءهم هو في الضَّلال نفسه، وليس في شيء اسمه الضَّلال، وهذا ما يفيده إيثار التَّعبير بالمصدر، وفيه دلالةٌ على عظيم خسرانهم، كأنَّ دعاءهم في ذهاب في غير طريق موصل، كما كانوا هم في الدُّنيا كذلك، فإنَّ الدُّنيا مزرعة الآخرة[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البيِّنة والبرهان والآية والسُّلطان:

المفردات الأربع تشترك فيما بينها في الدَّلالة على الحجَّة، وتختلف في أوصافها

هذه المفردات الأربع تشترك فيما بينها بأنَّها دوالُّ على معنى المعجزة والحجَّة والدَّليل مع فروق دقيقة بينها في الاستعمال القرآني، فكلمة (الآية) تُستعمل في صدد إعطاء الدَّلائل للرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام لمحاجَّة الأقوام، ولفظ (الآية) يستبطن معاني كثيرة من أخصِّها معنى (العلامة)؛ لأنَّ (الآية) علامة على صِدق من أتى بها وعلى عجز المتحدَّى بها، ومن استخدام القرآن الكريم لها في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [الشعراء: 139]، ويُستعمل القرآن الكريم لفظة (البيِّنة) في معنى الدَّلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 86.
(2) الراغب، المفردات: (بين).

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: 73].

ويستخدم القرآن الكريم في السّياق نفسِهِ لفظة (البرهان)، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]، والبرهان بيانٌ للحجَّة، وهو أوكد الأدلَّة؛ لأنَّه يقتضي الصِّدق أبدًا - لا محالة[1] - وهو في عُرف الأُصوليّين: ما فصل الحقَّ عَن الباطِل، وميَّز الصَّحيح من الفاسِد بالبَيانِ الَّذي فيهِ، وعند أهل الميزان: هوَ قياس مؤلف من مُقَدِّمات قَطْعيَّة منتج لنتيجة قَطْعيَّة[2].

كما أنَّ القرآن الكريم يعبِّر عن الحجَّة والمعجزة أحيانًا بلفظ (السُّلطان)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿*قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: 10]، وفي تسمية الحجَّة سلطانًا[3] دلالةٌ على قوَّتها وتسلُّطها بالإقناع والمحاجَّة على حجج المخالفين ومنطقهم، قال الكفوي: كلُّ سُلطان في القُرآن فهو حجَّة، وأصل السَّلطنة القوَّة[4].

وعلى هذا فالمفردات الأربع إنَّما تشترك فيما بينها في الدَّلالة على الحجَّة بأوصافها المختلفة من كونها علامة على صِدق من أتى بها، كما في (الآية)، أو كونها حجَّة قطعيَّة، كما في (البرهان)، أو واضحة الدَّلالة على المراد كما في (البيّنة)، أو كونها قويَّة في طرحها وإقناعها كما في (السُّلطان).

(1) الراغب، المفردات: (بره).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 249.
(3) الراغب، المفردات: (سلط).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 493.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»